رائحة جبن ...

قصة

بقلم سميرة عزام

« قابيل اين اخـوك ؟ »
ـ « يرقد في خيام اللاجئين

السل يوهن ساعديه ، وجئـتـه انا بالدواء
والجوع لعنـة آدم الاول وارث الهالكــين
سـاواه والحيـوان ثم رمـاه اسفل سافلين
ورفعته انا بالرغيف ، من الحضيض الى العلاء »

من قصيدة « قافلة الضياع » للسياب

* *

حين استيقظ في الصباح ، لم يملك ان يجد تفسيرا لشعور الانقباض الذي يستولي عليه ، واعتصر ذاكرته علّه يجد في الاحلام التي وافته ليلا علة له ، ولكنه لم يستطع ان يتذكر شيئا معينا ، فقد بدت له مختلطة مشوشة ، متداخلة البداية والنهاية ، وظل كذلك الى مابعد انتهائــه من ارتداء ملابسه . ولم يجد حين ركب الباص في نفسه ميلا ليحادث زملاءه فدفن رأسه في صحيفة فلم تبلغ همهمة زملائه اذنيه ، ولم يعرف ان هناك جديدا في الجو الا حين امتدت يد تهز كتفه من الخلف وصوت يقول بلا احتفال :

ـ هل بلغتك اخر الاخبار ؟ لقد اوقفوا وصفي .

وظل لحظة دون ان يفهم ما القي اليه ، وهم بان يعاود النظر الــى الجريدة ، ولكن اليد عادت تهزه وعاد الصوت يقول :

ـ يبدو عليك عدم التصديق .. لقد اوقفوا وصفي .

هنا احس بالجريدة تفلت من اصابعه ، ولم يدر مايقول حين التفت الى الرجل الذي خلفه وسأل :

ـ متاكــد ؟

ـ ولــو ؟.

كان في الباص اكثر من عشرين غيره من الموظفين ، وارتفعت الهمهمة وتعاقبت التعليقات واستكتت ثرثرة عاملة التلفون التي تحضر في كل يوم فيلما تتطوع بقصه باسهاب ممجوج ، دون ان يطلب اليها احد ذلك ، واختلفت التعليقات بين العطف المصطنع والشماتة المتقنعة وراء الانتصار للحق .. اما هو فلم يدر مايقول وتسارعت ضربات قلبه ، ولم تعــد عيناه تبصران سطور الصحيفة حتى وقف الباص امام دار وكالة الغوث كما اعتاد ان يقف كل صباح طوال احد عشر عاما ، ودخل واخذ مكانــه في المكتب الفسيح وقد شعر بالوجوه التي سبقته الى الحضور فــي باص اخر تتلقفه بشكل خاص ، فصداقته الوثيقة بوصفي قد فرضت تحفظا في تعليقاتها . ولما مر بواحد سمعه يقول لزميله على المكتــب المجاور ان رائحة بعض الموظفين غدت تزكم الانوف ، فابتلع الاهانة وحاول بعد ان جلس ان يتجلد وهو يراجع قوائم التوزيع . ولكن عينيه كانتــا تمران بالاسماء مرورا غائما ، ولما ضرب جرس التلفون في الغرفة احس بانه المقصود دون اي احد سواه ، فنهض اليه قبل ان يدعوه الى ذلك اقرب الموظفين الى الجهاز فرفع السماعة بيد مرتجفة واستمع الى مديره يقول بلهجة لاتلونها عاطفة ما بان يوافيه في مكتبه . ودون ان يعود ليطوي اوراقه ، اخذ طريقه الى الباب ، وقد تعلقت به عشرون عينا فضولية ، ثم قطع الممر وقرع باب غرفة المدير ودفعه دون ان ينتظر الجـواب . وانتصب امامه بعد ان القى تحية انتزعها من فمه بصعوبة . فقال له هذا دون ان يدعوه للجلوس بان الشبهة في اختلاسات مركز التوزيع الثالث قد وقعت على وصفي فاوقف بالامس ، وان صداقته لوصفي تستدعـي منه ان يمثل امام محقق الوكالة الخاص ليطرح عليه بعض اسئلة قـد تنفع في سير التحقيق ، ويرجو ان يجيب عليها بامانة وتجرد ، فعليـه ان يقصد للتو مكتب المحقق في الطابق الاعلى .

وسكت المدير ففهم من السكوت انه دعوة للانصراف ، فهز رأسه وترك الغرفة ، وظل يتساءل وهو يقطع الممر الطويل ثانية ويصعد درجـات السلم العشرين : لماذا انقبض بهذا الشكل كان الامر جديد عليــه كلية ؟ الم تتجه شبهاته شخصيا الى وصفي فحاول ان يراه منــذ اكتشف الاختلاسات قبل ثلاثة ايام واخفق في ان يجده في البيت برغم انه حاول رؤيته في فترات مختلفة من الليل والنهار ؟. فليتجلد ليقابل المحقق بهدوء .. هذا مكتبه الثالث الى اليمين . وكان الباب نصــف مفتوح فدخل ، وتطلع الرجل اليه متسائلا .. لقد نسي بانه لايعـرف من الموظفين الا اسماءهم فليقل له من يكون .. « آه اهذا انت ؟ اجلس » وجلس ، وحاول ان يبدو طبيعيا امام النظرات الكاشفة . وظل الرجل ساكتا وهو يشعل سيجارة من علبة لم يمدها له ، وجذب نفسين طويلين دون ان ترتفع عنه العينان ، ثم قال الصوت اخيرا بثبات « آسف لازعاجك بلغني انك صديق حميم لوصفي الذي وجهت اليه تهمة اختلاس مركـز التوزيع .. لا تقاطعني ارجوك ، اجل تهمة اختلاس ، وقد تكون بعض المعلومات التي يمكن ان نستقيها منك ذات قيمة فـي الموضـوع .. لا تقل شيئا قبل ان تسمع اسئلتي فقد لايكون فيها مايستوجب دفاعك . »

وسكت المحقق قليلا .. لعله يحاول ان يختار اسئلته بدقة فهل يقول له الحقيقة او لايقولها ؟.

اذا شاء ان يكون صادقا فعليه ان يقول .. اجل يجب ان اعتــرف انني لاحظت على وصفي توسعا في نفقاته .. مائة ليرة تكاليف سهـرة واحدة دفعها في الملهى .. وولاعة سجائر ذهبية استهوت احدى الفنانات فقدمها لها راضيا .. كل ذلك لانها شقراء .. اجل كيف لايدينه هذا .. لقد أدنته انا شخصيا .. كان دائما يستدين مني فكف عن ذلك منــذ ثلاثة شهور .. ولم انحرج من السؤال فادعى وهو ينفض الرماد عن بذلته الجديدة بان عمه المقاول في الكويت قد بدا يمدهم ببعض المساعدات .. اين كان عمه هذا حين اضطر الى قطع دراسة اخيه من منتصف المرحلة الثانوية ليوظفه ساعيا في احد البنوك ؟. لقد رفضت حكايــة عمه .. واذ تظاهرت بتصديقه كانت عيناي تكذبانني .. وخاف منــي ، بدأ يتضايق من صداقتي ، صار يتهرب من ذهابنا وايابنا في سيـارة واحدة .. لم يعد يشركني في سهراته .. عمه المقاول .. حكايــة مضحكة ومستهلكة .. آه ها هو الرجل يسأل .. فلاحاول ان استمع .. « هل لاحظت شيئا غير عادي في ..؟ » كيف لم الاحظ .. ولكــن

لماذا اقول لك هذا كله ؟ لا لن اقوله .. ولا يمكن لي بمثل هدوئك وبرودك ان الغي صداقتنا .. صداقة رصاص ودم .. جوع وتشرد .. انه ليس نذلا ..وصفي ليس نذلا ... كاد يضرب طبيبا لانه رفض ان يكتب تقريرا لامراة فقيرة يخولها دخول المستشفى بعد ان كادت الغنفرينا تاكل ساقها ... ليس لصا ... مساعداته الصغيرة لعمته الارملة .. وابن خالته العاطل عن العمل تأتي قبل اي حساب في راتبه ..

انت لم تكن معنا حين كنا نحلم بيوم تتحقق فيه معجزة تسوقنا الى الحدود برغبة اقوى من اقدارنا التاعسة ، لم تكن معنا حين كنا نجمع التبرعات لمجلة تحمل اسم وطننا وهمه معا .. لا لا تنتظر مني ان اكون امينا فاقول كلاما من هذا القبيل ، فلن احبك ، او احب الحقيقة بقدر ما احب وصفي ، وبقدر ما كرهته الساعة وانا اراه يفدو لصا . حساب وصفي لن يكون على يديك .. سيكون بيني وبينه ، واما انت فليس بوسعي الا ان اكون مدافعا امامك . لا تأكلني بعينيك .. فليس عندي ما اقوله اكثر من « انني اعرف وصفي مذ كان طفلا ، زاملته تلميذا وموظفا ، وليس سهلا على ان اتصورانه ينحط الى هذا الدرك » .

يا الهي اي حجر تلقمنيه وانت تقول بحكمتك الاجنبية :

« في مثل ظروفكم يا صاحبي لايدري المرء في اية لحظة يمكن ان يصبح لصا .. »

وتململ المحقق في كرسيه الدوار اشارة اليه بالانصراف ، فقام هذا وهو يحس بكل الدم الذي في جسمه يتدافع مرة واحدة بجنون الى راسه ، كان حمى قد هبت تتاكله حتى اطراف شعره ، وعاد لايدري كيف يتلمس طريقه وهو يهبط السلم عائدا الى المكتب ، ودخل غرفته فارتفعت الرؤوس عن الاوراق مستطلعة ، ولكنها مالبثت ان انخفضت امام العينين المحتقنتين .

كانت قوائم التوزيع ماتزال تنتظر ، اسماء لاول لها ولا اخر ، قافلة مضيعة تنتظر منه رغيفها . وامسك بالاوراق ومزقها ، ودفع بنتفها الى سلة المهملات وحمل راسه بين راحتيه يحاول ان يخفف من وخز الكلمات التي تطن فيه .

لم يقل كذبا هذا الرجل ، وهو وان لم يتكشف له بكلامه عن احساس معين ـ فهؤلاء اخبث من ان يظهروا عاطفة ما ـ الا انه يود لو يستطيع ان يقول هو نفسه هذا الكلام بمثل هذا الذكاء ، وان يضيف عليه لو استطاع : « ... او مجرما او نذلا او بغيا .. »

وسيشهد قومه يتساقطون واحدا وراء واحد حين تفرض « اللحظة » نفسها . وقام عن مكتبه ثم جلس .. ثم قام يمشي الى النافذة ، يبتسم برثاء لشجرة تين قائمة في حديقة قريبة وقد عراها الشتاء الا من اغصان يابسة ، فبدت هيكلا من الاحطاب الملتوية الميتة العروق ، واشعل ثلاث لفافات وعيناه مسمرتان على الشجرة وافكاره تومض بسرعة تعب من ملاحقتها ..

والقى لفافته الثالثة من النافذة ثم عاد الى مكانه .. لقد نبت في راسه شيء لايشبه هذه الاغصان .. شيء ياكل لو امرع كل هذا اليباس. والتفت يريد وجها يمكن ان يفكر معه بصوت مسموع ، فلم يسترح الى وجه من الوجوه المبثوثة في كل زاوية من زوايا الغرفة الكبيرة .. ومد يده في الدرج يبحث عن قلم ... فلا بد من ان يقول شيئا قبل ان يغادر هذا المكان ولا يعود اليه قط .

ماذا يقول .. هل يحكي حكاية الاخ الذي صار لصا .. لقد غدت معروفة وسيقصها كل واحد من هؤلاء على اهله وهو يلوك طعامه على مائدة الغداء .. دون ان يفطن الى انه في نظر المحقق امكانية لص ..

اذن فلتكن حكاية المجرم والبغي والوغد .. كما عرفها خلال ايام عمله الطويلة ...

فياض الحاج علي كان مزارعا في احدى قرى الشمال ، طول سنابل حقله تبلغ قامة الرجل كما يقول حين يكون سكران ، وقد لاتبلغ اكثر من وسطه اذا وصفها قبل ان يكرع نصف زجاجة العرق صرفا بلا ماء ، وكانت مواسمه في بلادنا خضراء دائما ، فسماؤنا سخية ، وتربتنا سمحة ، ولم تكن سواعدنا بالمتخاذلة الرخوة .

وحين راحت الارض ولم يبق من المواسم في خاطره الا صورة السنابل التي يبلغ طولها قامة الرجل حينا ووسطه حينا آخر ، اضحى واحدا من هذه المئات التي لا تكاد تشبع اذا وجدت ما تاكله ، ولا تجد لها سلوى بعد ان تتعب من التفجع الا ان تنسل نساءها .

قدم على المخيم بزوجة وطفل .. وفي يمدى احد عشر عاما كانت البطاقة التي يمدها لي في ياول كل شهر تشهد انه معيل لزوجة وخمسة اطفال

كان اول من يفتتح ايام التوزيع ، يمد البطاقة ويتناول الاعاشة ، دقيقا وسمنا نباتيا وتمرا ينفل فيه الدود ، وفاصوليا جافة قشورها اكثر من حبوبها .. وكان من القلة التي لا تثور ولا تشتم ولا ترانـي المسؤول الوحيد عن السوس الذي ينخر خبزها .

مرة قبل عام جاءني يحمل البطاقة الذليلة بيد ، وكيسا من الخيش في اليد الاخرى ، وقبل ان يبدأ معاوني بكيل حصته دخلت المركز امراة منتفخة البطن امسكت بي من كمي وقبلت يدي وهي ترجوني باكية الا اسلم الاعاشة لهذا النذل الذي يبيعها على الباب ليسكر بثمنها ، تاركا زوجته واطفاله يتضورون الشهر بطوله .

وقبل ان تنتهي المراة استدار اليها زوجها وكانه ذئب شرس وقد جحظت عيناه الحمراوان ورا حيكيل لها اللكمات والركلات بيديه ورجليه دون ان اقوى ومعاوني على صده .

وانطرحت المراة ارضا وتدفقت دماؤها حتى صبغت اطراف اكياس الدقيق ..

وحين اتصلت بالوكالة مستدعيا سيارة الاسعاف واقبلت هذه تنقل المريضة ، رفض المستشفى قبولها قبل الحصول على تقرير طبيب الوكالة ، وقبل ان اعثر على الطبيب ، واتمكن من الحصول على التقرير ، كانت المراة قد نزفت كل دمها ولم يبق منها سوى جسم شمعي منتفخ

ولم يطل امرها معالمستشفى فقد ماتت قبل ان ينتصف النهار .

فتاة في المدينة ..

مجموعة اقاصيص بقلم

محمد ابو المعاطي ابو النجا

دار الاداب

صدر حديثا

فياض الحاج علي لم يكن مجرما .

كان مزارعا طيبا ، ولكنه فقد الكرامة حين فقد الارض . قال لي احد شيوخ المخيم وحدثني كيف كان فياض مثال الدماثة وكيف نحر ابوه خمسة خراف حين زوجه من ابنة عمه التي يحبها .

انا اعلم ما حل بابناء فياض ، فقد رحلوا الى مخيم آخر ولكنني استطيع ان اؤكد حقيقتين هما ان بطاقة الاعاشة قد باتت تخولهم حق اعاشة خمسة اشخاص لا سبعة ، وان فياض يقضي في السجن عقوبة خمسة عشر عاما مع الاشغال الشاقة ، وانه اذا تحدث للسجناء عن سنابله وهو يضرب معوله في اشغال الطرق ، فسيقول ـ اذ لا خمر هناك ـ بان طولها يبلغ نصف قامة رجل ، مواسمه كانت خضراء دائما ، فالتربة سمحة ، والسماء سخية ، ولم تكن مواعد الرجال بالمتخاذلة .

وعرفت البغي .

لا لا تبحثوا عن اسمها في قوائم التوزيع الممزقة فقد عرفتها في مكان آخر ، واسمها الجديد هو غير اسمها في بلدها ..

في نهاية كل شهر ونحن نشد ايدينا على ما تبقى من الراتب الذي نتعب في تقسيمه بين المالك والبقال وصاحب المدرسة نحاول ان ننسى اننا تعساء فنسكر .. فاذا سكرنا راحت خطواتنا تفتش لها عن مكان من هذه الامكنة التي تضيئها الوان حمراء تنضح بالاثم ..

كان معي وصفي مرة وقد دخل قبلي .. فكل شيء بالدور .. هكذا نقول للذين نوزع عليهم الاعاشة .

ولكنه ما لبث ان خرج بعد قليل . كان ممتقع الوجه مرتعشا فجذبني من ذراعي جارا اياي للطريق ، وحين حاولت ان احتج على هذه الفظاظة كاد يبكي وهو يقول : « أتذكر احمد مدربنا في الحرس؟ أتذكر يوم قتل في غارة يهودية على اطراف بلدنا فحمله رفاقه الينا جثة فرفضنا ان نغسله ودفناه بدمه بعد ان ابناه بمائة قصيدة وخطبة واقسمنا ان نقايض برأسه الف رأس .. لقد رأيت صورته هنا .. صورته نفسها التي اظهرناها على مناشير النعي ، معلقة على طرف مرآة مكسورة . وجمدت وانا اتأمل الصورة ولما استدرت للمرأة لم اجرؤ ان اسأل . كان لها الذقن نفسها والانف المرتفع الدقيق .. وتبخرت كل نزواتي وانا ممسك بالصورة . ولما اعدتها الى مكانها وخطوت للباب لحقت بي تقول بصوت مرتعش كأنها تعتذر لي عن هذه النهاية .. « لم يكن لنا سواه .. ولما ماتت امي في هجرتنا لم يبق امامي الا هذا الطريق » . وسرنا بصمت وصفي وانا . وطارت آثار الكؤوس التي احتسيناها واعتصرنا الاحساس بالضياع . ومن يومها بدأنا نخاف البيوت التي يرشح الاثم من مصابيحها ، فقد كان من الممكن ان تنتهي اليها بعض اخواتنا لو لم يخطئنا رصاص اليهود .

وعرفت الوغد ايضا .

من يكون ان لم يكن ابا سليم ..

خيمته اكبر خيام المخيم ، ملحقة بها ثلاث خيمات صغيرة .. ومكانه دائما امام باب الكبيرة .. الى جانبه بسطة خشب صف عليها صنوفا من البضاعة يعرضها على اللاجئين بالثمن الذي يريد .

وابو سليم ليس فقيرا كجيرانه ، فقد كان موظفا بالميناء ، وما يزال له راتب تقاعد من حكومة الانتداب .. يدا زوجته مثقلتان بالمباريم الذهبية ، وله ولدان يعملان في الكويت ولا يقطعان عنه المدد قط ، وهو على سعة تسمح له بان يقرض جيرانه المبالغ بفائدة خمسين او ستين بالمئة .

ابو سليم جاسوس المخيم ، اول من يسجل على اللاجئين تحركاتهم ، واول من يبلغ الوكالة بان احدا قد مات لتبادر هذه بقطع التموين ، ولكنه كان ، ولا نعرف كيف ، يتناول الاعاشة حتى لولديه اللذين في الكويت ، ولامه التي ماتت قبل خمس سنوات ..

وفي المخيم خيمة كبيرة اسمها المدرسة ، ينحشر فيها اكثر من مائة من الصغار يقوم على تعليمهم استاذ من مخلفات المعارف في فلسطين تكاد عيناه لا تتبينان ما تخطه يمينه على اللوح الاسود المتداعي .

وفي الشتاء يدلف المطر من الثقوب الكبيرة وتصبح الارض عجينة طينية ، ويستحيل على الاولاد ان يتربعوا فيها على الحصير الرطب ، فكانت المدرسة في اجازة متصلة طالما كان هناك رب رحيم يسقي الزرع والضرع بلا حساب .

وشكا لي اهل المخيم هذا الشقاء الذي اسمه مدرسة ، فاقترحت عليهم ان يرفعوا عريضة يهددون فيها بمنع اولادهم عن الذهاب للزريبة حتى تبتني لهم الوكالة دارا حجرية .

ولما حاولوا ان يستكتبوا المعلم العريضة جبن عن ان يفعل ذلك ، فتطوعت انا بكتابتها .

ولم تفت ثلاثة ايام حتى تلقيت انذارا من الوكالة يحذرني من التدخل فيما لا يعنيني ، فمهمتي تنتهي عند مركز التوزيع .

ولم اشك قط ان مصدر الاخبارية كان ابا سليم .

وظلت المدرسة خيمة ينصب العلم من ثقوبها .

وظل المعلم المستهلك قائما ، فاذا تعب فهناك خمسة عرفاء يتولون عنه التدريس ، ويقومون بتهذيب تلاميذه بعصي لا يرى الاستاذ انفع منها وسيلة للتقويم .

والشيء الوحيد الذي تبدل في المخيم هو ان ابا سليم قد اشترى جهاز تلفزيون رفعه في صدر الخيمة الكبيرة ، وانه نصب « الايريال » على عمود الخيمة ، وانه فرض رسم دخول على من يريد الفرجة ربع ليرة للكبار ، وعشرة قروش للصغار ، وويل لمن يحاول التلصص من الثقوب .

أجل اعرفهم واحدا واحدا .

اللص والمجرم والبغي والوغد .

وهؤلاء ليسوا اسوأ من غيرهم ، لقد حاولوا ان يتخذوا لانفسهم هوية ما تميزهم عن القطيع الذي يمصق نصفه الدم . والذي لم يعد اكثر من احصاءات في القوائم تتضخم بالمواليد او تنقص بالوفيات . لقد شلت فيه القدرة على ان يرفض شيئا .

لا لم تقل كذبا ايها الحقق الوقور حين قلت « في مثل ظروفكم يا صاحبي لا يدري المرء في اية لحظة يصبح لصا .. »

وفي الغد حين تقرأون سطوري وانا في مكان آخر ارجو الا تفسروها على انها اعتذار عن شيء .. فقد فعلتها لانني لا اريد ان اغدو لصا . او اعيش الى الابد وغدا يلقم فومه حجرا حتى يظل يأسهم نائما على شيء من شبع .

* *

لم يكن يبدو على الشبح الذي يسير الهوينا في الطريق المغسول برذاذ مطر خفيف اكثر من متسكع لا يجد الحماسة الكافية ليعود الى بيته بعد جلسة بليدة في مقهى ، ولم تكن اضواء المصابيح نصف العمياء التي تنعكس على برك الماء الصغيرة انعكاسا يلون وحشة الطريق الكابي لتفضح وجها محتقنا يحترق بوهج الحمى .

ولم يكن ثمة صوت يخدش صمت الليل الا صوت ديك ارق ارعن ، لا يبالي ان يصيح حتى في ليل مات قمره ، والا نحنحة الخفير الذي يثبت وجوده بسعلة جافة تكاد لا تخرج بسهولة من صدره المتحشرج بالتبغ الرخيص .

لقد احتضن الناس همومهم وناموا وتركوا له وحده ان يواجه العالم بزجاجة مسطحة ملاها بالنفط وخباها في جيبه الخلفي ، وبعلبة ثقاب شفعها بولاعة فلا تخونه العيدان .

وكانت خطاه المتثاقلة تعرف قصدها ، فما تثاقلت الا لتدفع شبهة

طبعت على مطابع :
دار الغد للطباعة والنشر
تلفون : ٢٢٢٩٢١

قد تعلق بقدمين متسارعتين في حي هاجع .

وقبل ان تتوقف القدمان عند باب مركز التوزيع توجه الشيخ الى الخفير بشكل لايبدو معه التقصد ، والقى عليه تحية لاحماس فيها قد تفلح في ان تكون مفتاح ثرثرة عابره يجد فيها الفرصة ليقدم له فيها سجارة .

وتلقف الحارس التحية حفيا ، وقال حين تلكأ المار بأن الليلة رغم مطرها دافئة ، ولكن دفئها لايغير شيئا من طولها ، ولعن مهنته التي تجعل من ليل الناس نهاره .

والما رد عليه هذا بصوت متعاطف لم يرفض السيجارة التي قدمها ، بل امتصها الى النفس الاخير قبل ان يفطن الى ان الوجه غريب عن الحي الذي يعرف وجوهه وجها وجها ، ولكن هذا لا يعني شيئا ، فالليالي لا تخلو من المتسكعين ، لقد استانس به وبوده لو يتلبث قليلا فيجد من يصغي اليه بدل ان يحدث نفسه ، ولكن هذا ما يلبث ان يواصل مشيته المتثاقلة التي لا تبالي ان تتجنب الحفائر المملوءة بالمطر ، او ان تتقي هذا الرذاذ الذي لم ينقطع منذ ساعات الليل الاولى ، ثم يبتلفه منعطف جانبي ويظل الطريق للخفير وحده .

ولكن الطريق لم تكن له وحده ، فمن وراء المنعطف كان ثمة رأس يطل بخفة ثم يختفي ، ويعود فيمتد تتألق فيه عينان متحفزتان تستقرآن اثر التثاقل الذي دب في رأس الحارس وتترصدانه وقد بدأ الخدر اللذيذ يتسرب الى اطرافه ورأسه ، فيتحامل على نفسه ليجلس على الكرسي القصير الذي يضعه تحت شرفة واطئة تحميه من المطر اذا اشتد ، فيلقي بجسمه اليه واضعا بندقيته على ركبتيه ، وما تلبث رأسه ان تنثني في نومة لم يملك لها دفعا ، فالنوم سلطان حتى على الخفراء .

وينشط الغريب الرابض وراء المنعطف ويتحسس مفتاح المركز الذي يحمله ويضحك من مفارقات الظروف التي جعلت منه بطل عصابة ناجحا كتلك العصابات التي تغذى بقصصها افلاما لا تنتهي ، وخفت خطواته وهو يتجه الى الباب فيديره بخفة متحاشيا ان يسمع له صرير ، فقد يستفيق الحارس المخدر ويفسد عليه هذه المغامرة التي تاكل حماها قلبه .

ودفع الباب واغلقه وراءه واحكم قفله بالمفتاح ، ومد يده يتحسس زر النور فما من احد مثله يعرف خفايا هذا المستودع ..

وغمر الضوء المكان ... واضطربت الفئران التي ترتع وتسمن وتكتسب يوما عن يوم مناعة ضد حبوب السم الحمراء.. حتى هذه تتجرأ على مال اللاجيء ... ولكن لصوصيتها تنتهي عند حاجة بطنها ليت وصفي كان شريفا مثلها .. هذه نكتة كفيلة بان تضحكه في (الموقف) لو سمعها ، وسيقولها له في الغد حين يجتمعان .. اللص و .. ماذا .. اي اسم سيتلبسه في الغد ؟.. هذه حالة لم تصادفها الوكالة ، فقد عرفت لصوصا ومرتشين ، وعرفت دعاة زرق العيون يبشرون بالانسانية لقاء اكثر من الف دولار في الشهر ، وعرفت متحذلقين يرددون بان السياسة تنتهي عند باب الوكالة ، فماذا عساهم يتخذون له من الاسماء غدا ؟

سؤال لا يمكن ان يفكر فيه طويلا . فعليه ان يختار نقطة الحريق وان يجمع اكياس الخيش الفارغة فيصب عليها من زجاجة النفط التي يحملها ثم يترك للنار ان تأكل كل هذا الطعام .. فول ودقيق وتمر وزبيب، وليمة وقودها هذا الذل.. اوه لماذا يتلكأ؟ الا يخشى ان يستفيق الحارس فيقبض عليه لصا ، ولا يقبل له بغير هذا الاسم ؟

وسارع يحمل الاكياس ويكومها واحدا على واحد ، ويصب البترول الى اخر قطرة ويلقي بالزجاجة بعيدا الى الحائط المقابل فتتناثر ثم يشعل عود ثقاب يدنيه من طرف احد الاكياس ويقرب بيده الولاعة من الطرف الثاني فيشرب الكيس النار ويسري اللهب من جهتين ثم ما تلبث الالسنة ان تتقارب ، وتختلط وتتعانق . وتركها ليقرب اوعية الدهن ويجرف منها كتلا يلقي بها وسط الكومة واستدار من الجهة الاخرى ليمرغ بالدهن بعض الاكياس ويلقمها شرارة من عود .

وتزدهر ناره وتمرع .. وتلذع حرارتها جلده الاسمر ، ويتدفق الدم في شرايينه حارا ، ويغمره لون من فرح وحشي ، فيحمل سكينه يبقر بها بطون الاكياس المنتفخة ، فتتناثر محتوياتها على قدميه ، فيدوسها بخطوات مترنحة ، ويحلو له ان يضحك وهو يتصور اللاعنين الشاتمين يمزقون جلده باظفارهم . يدفنونه بلعناتهم ، رويدكم فلي ما اقوله غدا عندما اساق الى الموقف .. عندما اسوق نفسي اليه .. فلا ترجموا بحجارتكم هذا الدنيء الذي غطى سوءه على سوءات اللص والمجرم والوغد والبغي .

وفروا حجارتكم هذه .. وتلمسوا في ناري حياتكم الجديدة .. انظروا ! هانذا ادوس دقيقكم بحذائي ، اعفر قدمي بتراب فولكم .. اعلمكم ان تجوعوا ليتمرد فيكم اليأس .. لتكبروا تكبروا على الرغيف الذليل .

واذ يبلغ الباب يتكيء بظهره اليه وهو يشرب بعينيه المتوهجتين الالسنة المتوحشة .. وتحسس بيده الراعشة علبة السجائر .. وذكرته السيجارة بالحارس فابتسم..ماذا عساه قائلا للسلطة في الغد..حين يغدو المركز فحمة سوداء .. قضاء وقدرا ..؟ قد يكون قدرا ولكنه مصنوع!!

وتصاعدت الالسنة وبدا وهجها يشويه ، وراح صوتها يئز بصوت مسموع ، واقتربت من حافة النافذة الوحيدة في الجدار الشرقي.. ستاكل الخشب وتصهر الحديد وتطل على الليلة كوة مشتعلة تضيء طريقا جديدة . وسيعرف كل الناس ، كل اللاجئين ، كل من في الوكالة.. وسيعرف المحقق بالذات ، انه شيء اكبر من لص ، وارفع من وغد .. وان قومه لن يلعنوه اذا جاءوا .. فما حرق قوتهم ، وما سلط ناره على غنائم اللصوص والفئران ، الا لانه .. لانه يحبهم !

سميرة عزام

صدر حديثا :

أعطنا حبا

ديوان جديد للشاعرة المبدعة

فدوى طوقان

دار الاداب ـ بيروت